

منهج فخر الدين الرازي في تفسير القرآن

بسّام الجمل
باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

عاش فخر الدين الرازي (ت. 606 هـ) في النصف الثاني من القرن السادس هجريًا؛ فقد وُلِدَ بالرِّيِّ حيث كان الفكر الشيعيِّ سائدًا، درس الفقه على مذهب الشافعي، وبرع في علم الكلام وأصول الفقه والتفسير. وعُرِفَ الرازي بمجادلته لتكلمي عصره المخالفين له في المذهب.¹ وكان شغف الرجل بالمسائل العقلية، ممّا حمله على إيلائها فائق العناية ومحمود الاهتمام في ما كَتَبَ. وتذكر له كتب التراجم مؤلفات عديدة، أشهرها تفسيره الكبير، وكتاب «المحصول من علم أصول الفقه» وكتاب «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين»...²

ما يهمنّا من أعمال الرازي تفسيره الكبير وعنوانه «مفاتيح الغيب»، وعادة ما يُدرج في باب التفسير بالرأي ضمن اتجاهات التفسير القرآنيّ نظرًا إلى غلبة المباحث الكلامية والفلسفية عليه.³ وقد اختلف الدارسون، قدامى ومُحدَثون، في تقدير قيمة هذا التفسير. فمن المواقف الطاعنة فيه نذكر قول السيوطي متحدثًا عن الرازي: «قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخرج من شيء إلى شيء، حتّى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية [...] ولذلك قال فيه بعض العلماء: فيه كلّ شيء إلاّ التفسير».⁴ وفي إطار الموقف نفسه أبدى بعض الدارسين المعاصرين احترازًا من مثل هذا الصنف من التفاسير، وربما ارتاب منه.⁵ وغير خافٍ أنّ مثل هذه الآراء تعكس قصور نظر أصحابها وتعبّر عن ضيق آفاقهم المعرفية.

وبالمقابل، فإنّ من الباحثين المعاصرين من اعترف للرازي بالفضل، وبتميّزه العلميّ وبامتلاكه لحسّ نقديّ. ذلك «أنّ من كبار المفسّرين - ونقصد فخر الدين الرازي بالخصوص - من كان واسع الأفق، لا يسكت عن الصعوبات التي تعترضه، فيطرحها بكلّ أمانة ويحاول تذليلها ما أمكنه ذلك، مُقلِّبًا الأمر من مختلف

¹ انظر فتح الله خليف، مناظرات فخر الدين الرازي في بلاد ما وراء النهر، طبعة أولى، دار المشرق، بيروت، 1966.

² للتوسّع في دراسة ترجمة الرازي والتعريف بمؤلفاته راجع:

- علي محمّد العمري، الإمام فخر الدين الرازي: حياته وأثاره، ط. أولى، القاهرة، (د. ت).
- جورج فنواطي، فخر الدين الرازي: تمهيد لدراسة حياته وأثاره، ضمن كتاب «إلى الدكتور طه حسين»، طبعة أولى، دار المعارف بمصر، 1962، ص ص: 193-234.
- محسن عبد الحميد، الرازي مفسّرًا، طبعة أولى، بغداد، 1974.

³ انظر:

CL. GILLIOT, *La transmission des sciences religieuses, in: États, Sociétés et Cultures du monde musulman médiéval (X-XV siècle)*, Presses Universitaires de France, 2000, Tome 2, p. 342.

وقد لاحظ أركون أنّ الدارسين المحدثين، جعلوا الرازي ممثلًا لتيّار توفيقّي في التفسير القرآنيّ. فقد جمع الرجل في عمله بين بيان الخطاب القرآنيّ والاختصاصات الألسنية والعلمية الشائعة في ثقافة القرن السادس هجريًا. انظر: *Lectures du Coran, op. cit.*, p. 72.

⁴ الإتيقان، م. م.، ج: IV، ص: 213.

⁵ يقول صبحي الصالح: «التفسير بالرأي حتّى مع استيفائه جميع الشروط التي تجعله محمودًا لا مسوّغ له إذا عارضه التفسير بالمأثور الذي ثبت لنا بالنصّ القطعيّ لأنّ الرأي اجتهاد ولا مجال للاجتهاد في مورد النصّ»، مباحث في علوم القرآن، م. م.، ص: 293.

السورة، مشيرًا إلى السورة النازلة قبلها حسب تاريخ النزول؛ فسورة الحجر 15 عنده نزلت بعد سورة يوسف 12،¹³ وسورة الإسراء 17 نزلت بعد سورة القصص. 28¹⁴

● **ثانيًا:** الربط بين أقسام نصّ المصحف،¹⁵ ويظهر في مستويين: مستوى أول يخصّ اتصال السورة بالسورة. فعند تفسير سورة العنكبوت 29، ساق الرازي ثلاثة وجوه في "تعلّق أول هذه السورة بما قبلها [القصص 28]"،¹⁶ ومستوى ثان يهتم الربط بين الآيات.¹⁷ ويندرج هذا المبحث عنده في ما يسمّيه بـ«كيفية النظم».¹⁸ وغالبًا ما يُفتتح به تفسير الآية، ممّا يؤكّد منزلته الأثيرة عند الرازي؛ فهو يقول مُبيّنًا تعلّق الآية 273 من سورة البقرة 2 بالآية التي قبلها: "اعلم أنّه تعالى لما بيّن في الآية الأولى أنّه يجوز صرف الصدقة إلى أيّ فقير كان، بيّن في هذه الآية أنّ الذي يكون أشدّ الناس استحقاقًا بصرف الصدقة إليه من هو؟"¹⁹

● **ثالثًا: القضايا اللغوية،** وتتمثّل أساسًا في توضيح معاني مفردات القرآن؛ ممّا يستدعي شرحًا لغويًا وبيان تراكيب غير مألوفة وتدبر بعض المسائل النحويّة. ولذلك، فإنّ الرازي كثيرًا ما يحيل في شروحه اللغويّة على أبي عبيدة (ت. 208 هـ) والفرّاء (ت. 207 هـ) والزرّاج والمبرد.²⁰ وابن السكيت²¹ (ت. 244 هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت. 471 هـ) في دلّائل الإعجاز.²² ويؤكّد الرازي مواقفه اللغويّة بنماذج من الشعر العربيّ القديم. ولذلك نراه يذكر بيّنًا للبيد في شرح كلمة «خَلَف» الواردة في الآية 59 من سورة مريم 19.²³ ويسوق بيّنًا لقطرب عند تفسير الآية 63 من سورة طه 20.²⁴

● **رابعًا: القراءات:** ينظر الرازي في مختلف القراءات الموافقة للمعاني القرآنيّة المقصودة. وهذا ما يفسّر تعدّد الإحالات على مشاهير القراء والمشتغلين بعلم القراءات؛ فهو يسوق قراءة نافع للآية 214 من سورة

¹³ المصدر نفسه، ج: XIX، ص: 151.

¹⁴ المصدر نفسه، ج: XX، ص: 145.

¹⁵ يقول الرازي: "إنّ أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"، المصدر نفسه، ج: X، ص: 140.

¹⁶ المصدر نفسه، ج: XXV، ص: 25-26.

¹⁷ محض علماء القرآن تسمية اصطلاحية لهذا المبحث هي «معرفة المناسبات بين الآيات». ونبّهوا إلى صعوبة الخوض فيه. ولذلك "قلّ اعتناء المفسّرين بهذا النوع لدقّته. وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي". الزركشي، البرهان، م. م، ج: I، ص: 36.

¹⁸ تفسير الرازي، م. س، ج: VII، ص: 107.

¹⁹ المصدر نفسه، ج: VII، ص: 79. وانظر نماذج أخرى موافقة لهذا المبحث في ج: 10، ص: 153 وج: XVI، ص: 214.

²⁰ انظر: المصدر نفسه، ج: XXVIII، ص: 4.

²¹ المصدر نفسه، ج: XXVII، ص: 252.

²² المصدر نفسه، ج: XXVII، ص: 82.

²³ المصدر نفسه، ج: XXI، ص: 235.

²⁴ المصدر نفسه، ج: XXII، ص: 76.

البقرة 2،²⁵ ويأخذ بقراءة حمزة للآية 217 من السورة نفسها.²⁶ فضلاً عن ذلك، ضمّن الرازي تفسيره آراء لابن جنّي (ت. 393 هـ) في القراءات مأخوذة من كتابه «المحتسب». وهذا ما نجده عند تفسير الرازي للآية 29 من الحديد 57.²⁷ وعادة ما اتّسمت مواقفهم من تعدّد القراءات بمرونة ظاهرة.

● **خامساً: أسباب النزول؛** فالرازي يتعرّض إلى هذا المبحث متى كان للآية سبب نزول معروف.

● **سادساً: معنى الآية** ويدركه الرازي بعد إنجاز المراحل السابقة في التفسير. لكأنّ تلك المراحل هي التي ترشد المفسّر إلى دلالات الآيات، وتوجّهه إلى أقوم المسالك في طلبها. ولذلك يستعمل التعبير التالي: "... فكان المعنى..."²⁸ أو الصيغة التالية: "إنّ المراد من هذه الآية..."²⁹ هو كذلك قوله: "إذا عرّفت هذا فنقول: معنى الآية على هذا التفسير أنّ..."³⁰ وعندما تتعدّد الآراء في تقدير معنى الآية، فإنّ الرازي عادةً ما يفصح عن موقفه منها ويختار ما يراه منسجماً مع مقتضى الآية، ويحتكم في ذلك كلّه إلى ما يقيم الحجّة على صواب رأيه. وهذا ما يجلوّه قوله عند تعرّضه إلى الآية 229 من سورة البقرة 2: "فهذا تفسير حسن مطابق لنظم الآية. والذي يدلّ على أنّ هذا التفسير أولى وجوه..."³¹

وكانت للرازي - وهو ينفّر عن معاني الآيات - آراء نقدية بارزة، إذ يشير إلى مواطن الخطأ والوهن في تفاسير غيره من العلماء. من ذلك أنّه ردّ على الزمخشريّ تفسيره للآية 16 من سورة الإسراء 17 بالقول: "فلا أدري لِمَ أصرَّ صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساد..."³² وتعدّدت مناقشات الرازي للجصاص صاحب «أحكام القرآن». من ذلك قول الرازي عند تفسيره للآية 22 من سورة النساء 4: "واعلم أنّ السبب في ذكر هذا الاستقصاء، ههنا، أنّ أبا بكر الرازي طوّل في هذه المسألة في تصنيفه. وما كان ذلك التطويل إلاّ تطويلاً

²⁵ المصدر نفسه، ج: VI، ص: 20.

²⁶ المصدر نفسه، ج: VI، ص: 32.

²⁷ المصدر نفسه، ج: XXIX، ص: 248.

²⁸ المصدر نفسه، ج: V، ص: 130.

²⁹ المصدر نفسه، ج: XII، ص: 26.

³⁰ المصدر نفسه، ج: XII، ص: 205.

³¹ المصدر نفسه، ج: VI، ص: 97.

³² المصدر نفسه، ج: XX، ص: 174. وانظر مثلاً آخر في ج: XXVII، ص: 16.

وثامنا: لقد بدت لنا مادة أسباب النزول في تفسير الرازي مهمة جداً حجماً ومحتوى. ولعل ما يميّز أخبار أسباب النزول ههنا، قلّة احتفاء المفسّر بنقل أسانيدھا كاملة، إذ أنّه غالباً ما يقتصر على ذكر الراوي الأوّل للخبر. ويثبتُ الرازي أحياناً روايات عديدة لسبب نزول الآية عارية تماماً من الإسناد. وهذا ما نجده مثلاً، عند التعرّض إلى سبب نزول الآية 94 من سورة النساء 4 حينما ساق المفسّر ثلاث روايات في سبب نزول الآية.⁴¹ ومثلما ألمحنا إلى ذلك سابقاً، فإنّ الرازي لا يخوض في معنى الآية قبل النظر في سبب نزولها إن كان لها سبب نزول. ولذلك نراه يقول مثلاً، عند تفسيره للآية 178 من سورة البقرة 2: "قبل الشروع في التفسير لا بدّ من ذكر سبب النزول".⁴² وعادة ما يختصّ الرازي «المسألة الأولى» من مسائل تفسير الآية لمبحث سبب النزول، خاصّة إذا لم تستدع الآية نظراً في قضايا النظم واللغة والقراءات؛ فهو يقول في مستهلّ تفسيره للآية 128 من سورة آل عمران 3: "المسألة الأولى: في سبب نزول هذه الآية قولان:..."⁴³ ويقول عند تفسير الآية 106 من سورة المائدة 5: "المسألة الأولى: اتفقوا على أنّ سبب نزول هذه الآية أنّ..."⁴⁴.

ولكن يحدث أن يتأخّر ذكر سبب نزول الآية في الرتبة لأسباب عديدة أهمّها أنّ إبداء الموقف في سبب النزول يكون مرتين بما يوافق الآية من قراءة أو أكثر. من ذلك ارتكاز سبب نزول الآية الأولى من سورة المعارج 70 على قراءة معيّنة للآية.⁴⁵ ويتعمّد الرازي إثبات سبب نزول الآية في آخر مراحل التفسير متى أعرب عن زهده فيه وعن عدم التعويل عليه في طلب دلالة الآية. من ذلك أنّه خصّص «المسألة الرابعة» لسرد أربع روايات خاصّة بسبب نزول الآية 122 من سورة الأنعام 6. ثمّ عدل عن تلك الروايات إلى رأي "يعتبر هذه الآية عامّة في جميع المؤمنين والكافرين. وهذا هو الحق؛ لأنّ المعنى إذا كان حاصلًا في الكلّ، كان التخصيص محض التحكّم..."⁴⁶ ويوضّح لنا هذا المثال طريقة الرازي في التعامل مع أخبار أسباب النزول. فغالبًا ما يعرّض لمختلف الأحوال المتعلّقة بسبب نزول الآية أو بجزء منها عرّضًا موضوعيًا. ثمّ ينظر فيها نظرًا فاحصًا، ومن ثمّ يقرّر موقفه منها في ضوء ما أدّاه إليه بحثه. وتتردّد تلك المواقف بين الترجيح والاختيار مرّة، والجمع والتوفيق بين الأقوال حينًا وتعليق الحكم حينًا آخر.

⁴¹ انظر: تفسير الرازي، م. م، ج: XI، ص: 3.

⁴² المصدر نفسه، ج: V، ص: 46.

⁴³ المصدر نفسه، ج: VIII، ص: 217.

⁴⁴ المصدر نفسه، ج: XII، ص: 114. وانظر أمثلة أخرى في ج: XII، ص: 234، وج: XVI، ص: 122...

⁴⁵ انظر: المصدر نفسه، ج: XXX، ص: 121-122.

⁴⁶ المصدر نفسه، ج: XIII، ص: 173.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب: 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com